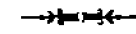


ألمانيا بين نيتشه وهتلر

«دين القوة»

للأستاذ عبد المجيد نافع



حين أوشكت صحيفة القرن التاسع عشر أن تطوى نشرت في أوروبا راية دين جديد، ذلك هو دين القوة، وكان حامل لوائه بل رسوله البشر به هو الفيلسوف الألماني فريد رش نيتشه على أننا نحب أن نبهدهما قد يطلق بالأذهان، فنسارع إلى القول بأن عبادة القوة والإيمان بآثرها الخاسم في حياة الأفراد والشعوب، دين قديم جديد، اعتنفته الإنسانية في كل مراحل التاريخ من غير أن تجهر به، فكبدتها كل ما أنفقت من دموع ودماء

وفي الحق أنك لو جردت الإنسان من طلاء المدنية، ذلك الطلاء الذي هو بمثابة القشرة الخارجية التي بصلطنها ليخفي تحتها أطماعه تارة، وضعفه طوراً، لتبدى في ثياب الإنسان الأول بكل ما فيه من مظاهر الوحشية والهمجية والقسوة

والحق للقوة — كلمة قالها بيسارك الألماني رجل الدم والحديد. ولو أن النصر لم يعقد بلوائه في حروبه مع الدانمرك والنمسا وفرنسا لتنادى بأن الحق فوق القوة. ولو أن القوة حالت بين هتلر وبين أن يردد النمسا، ويثنى على ازدهارها بتشييكوسلوفاكيا للمأفة بكلمات العدالة والحق والمساواة والحرية

ولكن نيتشه، رسول القوة، يتفرد بأمور: منها أنه صبح الدين الجديد بالصيغة الفلسفية، ورسم له الحدود والمالم، ودعمه بأسانيد الواقع والتاريخ. ولعله يتميز بين جبابرة العقول وحمة لواء الفكر الإنساني، بصراحته الوحشية التي مزقت قناع الرياء من وجه الإنسان

ولا نحسب أن مفكراً طبع العصر الحديث، في الغرب، بطابعه الفكري، مثل نيتشه. وإذا كانت ما كيا فيللي أستاذ كثير من السياسيين، فإن نيتشه أستاذ الدكاتوريين، وخاصة زعيم النازية

نم، هو ملهم النازيين ومهيض وجيهم، هتف بدين القوة والسلطان، وتلقف زعماء ألمانيا الحديثة تعاليمه، فأفرغوها في قوالب التطبيق العملي، غير متأمنين ولا متحرجين، إذا كان تطبيقها يجرح شعور العدالة، أو يثير الضمير الإنساني كان صاحب دعوة القوة يحمل على الديمقراطية حملاته الشمواء بدعوى أنها من أقوى مظاهر الانحطاط والانحلال في أوروبا المصرية، وكذلك يذهب دعاة النازية هذا المذهب. فما كادت ألمانيا تنسحب من عصبة الأمم في عام ١٩٣٣ حتى قال هتلر، في أعقاب ذلك الانسحاب، لبعض صحبه: «لن تعود ألمانيا إلى عصبة الأمم الديمقراطية بحال. فقد دبت فيها عوامل الفساد، وقضت عليها الديمقراطية بالغناء والدمار»

وينادى زعماء النازي بأن ألمانيا نهبي الجولان انقلاب جديد، وأن على العالم أن يمشي تحت رايته. وكان البشر بدين القوة، بعد أن ظن أنه حطم أصنام الأوهام الموروثة من دين وعلم وفلسفة وفن وأخلاق وديمقراطية، وأقام على أنقاضها للقيم الأخلاقية الصحيحة، واكتشف الإنسان الأعلى، أنه قد مهد الطريق لظهور الإنسانية الجديدة البريئة من شوائب الضعف والانحلال المرتكزة على دعائم القوة والسلطان

وأسر الفوهرر إلى بعض رفاقه أنه على تمام الأبهة لأن يضع توقيعه على أي اتفاق، ويضمن أية حدود، ويمضى ميثاق عدم اعتداء مع كائن من كان، على أن يتقضى كل أولئك، في دم بارد وضمير جامد، إذا اقتضته قوة ألمانيا وعظمتها. وجاهر رسول القوة بأن الضعيف يبتغي السلام والوفاء والمساواة والحرية، لا يشترط بآماله إلا إلى الاحتفاظ بذاته. ولكن القوى يؤثر أن يثير المشكلات وعظائم الأمور. الضعيف يضرر الكيد لحسب؛ فأما القوى فيهجم غير وان ولا متردد، فإن القوة التي تفيض بها جوانب نفسه محفزة إلى التوثب والانقضاض

وأعمل نيتشه معاوله حتى ظن أنه تقض القيم الأخلاقية من أساسها. فالشفقة لديه بغيضة لأنها من أخلاق العبيد، والقسوة في عرفه مرضية لأنها من أخلاق السادة. تلك شرعة الضعفاء وهذه شرمة الأقوياء. ولا يتحرج من أن يجهر بأن الشفقة هي فضيلة المومس، وينادى مع شاعر الأساطير الشمالية القديمة:

« إن فوئان (كبير الآلهة في تلك الأساطير) قد وضع في صدرى قلباً قاسياً » . ثم يهتف : « من الواجب عليك القسوة . فمن هذا الطريق وحده يسمو الإنسان إلى أعلى حيث يقابله البرق ومحطته : فترتفع إلى البرق ارتفاعاً كافياً » . ذلك بأنه يرى أن القسوة أعظم شيء يفضى إلى تقوية الإنسان وترويضه على ملاقات الأخطار ، وشجذته للهوض بجلائل الأعمال ، على حين لا شيء أخطر على المجتمع من الرحمة بالضعفاء والمجازين ، إذ تنهض عقبة في سبيل قانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصالح . فتوايس الطبيعة تقضى بإبادة الكائنات الضعيفة وإفنائها من الوجود . وأما نحن فننتحى قوانين التطور ، ونعمل على أن نحيل العالم إلى ملجأ الضعفاء والمجازين .

ومن ذا الذي تداخله أنارة من الشك في أن هذا ما يدين به جماعة النازي ؟ أرايت كيف نكلوا برفاقهم في الجهاد يوم قاموا بعملية التطهير بين صفوفهم في عام ١٩٣٤ حين زعموا أنهم وقد اختمرت في رؤوسهم فكرة الجريمة ، أخذوا يدبرون في الظلام ومن خلف الأستار مؤامرة واسعة النطاق ترى إلى هدم نظام الحكم النازي ، وتحت ستار هذه الدعوى أجهزوا على طائفة من رؤوسهم وفي طليعتهم رويهم ، وكذلك لم يبقوا على شليخر وزوجه !

وهل أناك حديث الجستابو وما يجري من أعمال القسوة في مسكرات الاعتقال التي تضم الخصوص السياسيين الذين يظن فيهم أو يلح من ثنائيا حركاتهم أنهم يترزمون الانتقاض على حكم النازي ؟

نم هل جاءتك أنباء تنكيلهم بكل من يحاول كسر القيود من الأمم التي غلبوها على أمرها وأخضعوها لحكمهم عنوة واقتداراً؟ ويرد أولئك الدكتاتورون قسوتهم بأن سلامة الدولة قبل كل شيء وفوق كل اعتبار

ويتخذ النازيون المنف عقيدة ويمدون الرحمة خوراً في الطبيعة ويؤمنون بالقوة إيماناً عميقاً ، القوة الحالية من شوائب الشفقة والرحمة ، المتجردة من هواجس الضمير ومن عوامل الضعف الإنساني ، القوة التي تذهب إلى حدود الوحشية أحياناً ؛ فإذا وقف

الضمير في وجه القوة ، وعاق نهوضها إلى الأمام ، كان ذلك آية على الضعف والانهلال ، ومظهر آمن مظاهر انحطاط الفرد والجماعة وفي كتابه « كفاحي » لا يكتم زعيم الريح الثالث ازدراءه لما تواضع الناس على أنه رحمة ، وما اصطالحوا على أنه إنسانية . ويدين جماعة النازي بالبدا القاتل : بأن « الحرب الدائمة » هي حالة المجتمع الإنساني في المستقبل ، وأن على كل أمة أن تعد لها المدة ، وأن تنكر للسلام ، ولا تنجهم للحرب . فالسلام يقتل حيوية الأمم ، فأما الحرب فتندى تلك الحيوية ، ولا ينجح للأول إلا الأمم المزقة المستسلمة ، ولا ينزع لخوض غمرات الثانية إلا الذين يفيضون بالقوة والعزة . فلألمانيا تبتني « تقسيم العالم من جديد » كما يقول وزير دعايتها جوبلز . لا ، بل يزعم فيلسوف النازية روزنبرج أن الشعب الألماني خلق للسيادة ، ولا مندوحة عن أن يسطر سلطانه على العالم ، ليهي حضارة أعلى وفي سبيل فرض السيادة على الدنيا يرى القابضون على مصائر ألمانيا أن لا بد لها من التسلط على المستعمرات والطرق الرئيسية للبحار

وتطوف بأحلام النازيين خيالات غريبة ، ونصور لهم أوهامهم ما لا يمكن أن يتعلق به أمل ، فترام يقولون إن مأساة مونيخ قد كشفت عن ضعف إنجلترا وشيخوختها ، وأن لا بد لهم من إضمار إنجلترا ، وتحطيم الامبراطورية البريطانية ، تلك الامبراطورية التي قال عنها كبيرهم أدولف هتلر وهو يخلق في أجواء الخيال : « إن الإمبراطورية البريطانية تمثل ضخم هائل يقوم على رجلين من طين »

فأما فرنسا فيجمع الخيال زعماء النازي فيقولون عنها إنها « أمة متحضر » فلا يقام لها في ميدان الصراع الدولي وزن أو اعتبار !

ولسوف تصدم الحقائق زعماء النازي صدمات قاسية ألحمة ، وتوقظهم من أحلامهم بإيقاظاً خشناً ، وإذ ذاك يملكون إلى أعماق أية هوة ساقوا بلادهم !

ولمهم حين تساورهم الأحلام فيتملقون بأهداب تلك الأمانى الباطلة يؤمنون في أعماق نفوسهم بقول الفوهرر : « إن كل

أ كذوبة يمكن أن تساغ وتهضم ، على شرط أن تكون من الضخامة بمكان »

وليس بطمع الريخ الثالث في أن : « يتخذ له مكاناً ليميش فيه » وإنما ينشبت بالأمانى الكاذبة فتجتمع به القوة الفاشية إلى حد الطموح إلى ضم الدنيا بأسرها تحت علم الصليب المعقوف والسياسة المنصرية التي طبعت تصرفات حكومة النازي إنما هي منبثقة عن تلك العقيدة الخاطئة وهي أن المنصر الآرى قد خلق للسيادة بينما خلقت العناصر السامية لليبودية !

وترى النازيين ينفخون تلك الروح في شبابهم ، ويعملون بها جوانب نفوسهم فينادى نشيد الشبيبة الهتلرية :

« اليوم نملك ألمانيا ، وفي غد نملك العالم بأسره »

والآن فن الذي أضرم نيران المطامع في نفوس الألمان حتى أشعلوا نار الحرب الحاضرة ؟ إن الذي أوجع تلك الروح إنما هو داعية دين القوة ، والبشر بالإنسان الأعلى ، فريدرش نيتشه

لقد تروعتك مبادئه وتعاليمه ، بل لقد تهولت قسوته وعنفه ، ولكن لا مفر من إجابة الفكر في تلك التعاليم والمبادئ إن كنت تبني مواجهة الحقائق مهما كانت قاسية وألمية ، وكنت تريد أن تعلم من هو موقد نيران الحرب الحاضرة ، وممثل الحرب العالمية من قبل

يذهب نيتشه إلى أن من أقوى الدلائل على الخور والاستسلام الذي أصاب المدنية في القرن التاسع عشر ، وتفشى بين صفوفه ، تحصنهم خلف ما يسمونه السلام الدائم ، وتذرهم يدعونه الإنسانية التي هي أنشودة الضمءاء ، ورمز الانحلال ، وعنوان الاضمحلال ؛ لأن الحرب الدائمة ، على ما فيها من كوارث وويلات هي الحالة الضرورية لهضة الأفراد والشعوب .

ويذهب الفيلسوف الهدام إلى أن النريزة التي تسير الإنسان وتطبع كافة تصرفاته ، إنما هي غريزة حب السيطرة ، وإرادة القوة . وعنده أن الخير هو كل ما يملو في الإنسان بشعور القوة وإرادة القوة ، والقوة نفسها ؛ وأن الشر كل ما يصدر عن الضعف ، وأن السعادة في الشعور بأن القوة تنمو وتزيد ، وأن لا رضى ، بل قوة أكثر وأكثر ، ولا سلام مطلقاً بل حرباً ، ولا فضيلة بل مهارة ، وأن الضمءاء المعجزة يجب أن يغنوا ، وأن هذا هو

أول مبدأ من مبادئ جننا للإنسانية ، وأن أشد الرذائل ضرراً إنما هي الشفقة على الضمءاء المأجزين .

وينادى نيتشه بأن مذهب دارون في « تنازع البقاء » مذهب باطل ، فليست الحياة تنازع البقاء ، وإنما هي تنازع القوة وتنازع السيطرة . وما تاريخ الإنسانية إلا سلسلة متصلة للحلقات من تنازع السلطان والغلبة والقوة بين السادة وبين العبيد . فأما العبيد فيخترعون قياً أخلاقية لا غاية لهم منها إلا إخضاع السادة لهم عن طريقها ، وإن هي إلا أسلحة مسمومة يستخدمونها رجاء أن يتحرروا من نير سادتهم ، ثم الطمع في السيطرة عليهم بمجرد زوال سلطانهم

ويذهب ذاك الذي لا يؤمن إلا بالقوة إلى أن الضعيف يريد للسلام والوفاق والحرية والمساواة ، لا يبقى من الدنيا شيئاً إلا الاحتفاظ بالبقاء . ولكن القوى يؤثر أن يخوض غمار المشكلات ، ويواجه المواقف والأهوال غير وجل ولا هيب ، ويشرب بآماله إلى تسنم الذروة ، وبلوغ العظيم من الأمور . للضعيف لا يرضى أن يخاطر بشيء ، فأما القوى فيناصر بكل شيء ، إذ أن حياته كلها عواصف وأخطار ، بل يبذل له نيتشه النصيح أن « يعيش في خطر » فذاك هو المبدأ الذي يكفل له الاحتفاظ بكل مظاهر القوة

ويبشر نيتشه بظهور الإنسان الأعلى . ولكن كيف السبيل إلى ظهوره حتى ينهض بالإنسانية من كبوتها ، ويقيم العالم من عثائه . السبيل أن يؤمن الناس بالأرستقراطية والتميز ، ويكفروا بالديمقراطية والمساواة ! نبين الكيف والكم خصومة عنيفة . فأما الأول فينادى بالتميز وينكر المساواة ، ويؤمن بالفرد ولا يعبئ شيء من المجموع باعتباره مجموع وحدات متساوية ، فالحكومة المقدسة من الرمال لا تساوي كلها أكثر مما تساويه حبة رمل واحدة . فأما الكم فكل شيء عنده سواء ، يريد أن يخرج الناس جميعاً في صورة واحدة ، ويطبق عليهم مقياساً واحداً . فصيحته « المساواة ! المساواة » وشعاره « نحن جميعاً متساوون ! » وليس هناك أناس أعلى من أناس ! وترى أصحاب الكم يتحدثون عن « الأغلبية » و « المجموع » و « أكبر عدد ممكن » حتى

ولا تحسبن الألمان يشكون يبنى إسرائيل اعتقاداً منهم بأنهم سبب نكبتهم وباعت هزيمتهم في الحرب العظمى . قال يهود في نظر نيتشه هم أول من قاموا بثورة المبيد ، وهم الذين حاربوا للسادة حرباً لا هوادة فيها ، وأذّنوا في الناس بأخلاق المبيد لتفكون سبيلهم إلى التسلط على السادة . وكذلك كانوا يوم قاموا في وجه روما . وهكذا فعلوا حين أشاعوا في الناس أخلاق الضعف والجبن والعجز والخور تحت أستار الحرية والمساواة !

والآن أرجو أن أقول إن الذي أوحى إلى بهذا البحث هو الكتاب القيم المتمتع الذي وضعه عن « نيتشه » صديق العالم الشاب الأستاذ عبد الرحمن بدوي . وإن أسلوبه الحار الملهب ، وعباراته التي تنبض بالحياة في كل موطن ، وإلامه اللائق بحياة نيتشه ومبادئه وتعاليمه ، وتبسيطه لمبادئ الفلسفة الجافة حتى تسيفها العقول والنفوس ، وطريقته في عرض الآراء وبسطها ، كل أولئك قد أغراني بأن ألهمه التهاماً فأجبت أن أغري الشبان بمشاركتي في هذا المتاع العتيق . عبد الحميد نافع

انحطت الحياة في جميع مظاهرها إذ أصبحت السيادة والسلطان للدهماء على أحباب الرؤوس والفكرة والشخصيات الخصبية المتأثرة فأى عجب وتلك تعاليم نيتشه التي تشبع بها جماعة النازي ، أن نسمع كبيرهم أدولف هتلر يقول عن أعضاء مجلس الريشتاج : « لست أدري كيف يمد يد إدارة السياسة العليا للدولة لقطع من الخراف رؤوسها خاوية »

بل كيف نعجب من إشعالهم لنيران الحرب الحاضرة والتهايم الشعوب ، إذا كان أستاذهم نيتشه يتأدى بأن الإنسان الأعلى رجل نضال دائم من أجل السيطرة والفرز والظفر ، لا يمينه إلا أن يسير نحو الغاية التي رسمها لنفسه ، وأن أبض شيء إليه السلام ، والحرب عنده أقدس شيء .

وإذا أنت اطلمت على رأي نيتشه في القيم الأخلاقية لم تدهش لتصرفات بني قومه في أي بلد اجتاحوه . فمنده أن الضعيف يسمى العجز « إحصاناً وطيبة » ويسمى عدم القدرة على الانتقام والأخذ بالثأر : « صبراً » ويسمى حاجته إلى الآخرين وقصوره عن الاعتماد على نفسه : « رحمة » ويسمى عجزه عن إدراك العالم

السامية والغايات المالية : « تواضعاً » . فأما الأقوياء فيسمون الأشياء بأسمائها ولا يبتغون إلا للظفر والانتصار وتحطيم كل من يقف في سبيل تحقيق آمالهم السامية في الحياة غير حافلين بدموع تسكب ، أو دماء تسفك ، لأن قلوبهم الصخرية ، وعواطفهم المتحجرة ، تملأها المطامع والغايات ، ولا تجد الرحمة إليها سبيلاً

ولمك تسأل عن السر في مناضبة النازية للسيحية وإرهاقهم لدعاتها ، وتنكيلهم بهم أحياناً ؛ وعندنا أنه لا اكتشاف هذا السر ينبغي أن نقول لك : « قتل عن نيتشه » . حملته السموات على دين عيسى ، ورميه هذا الدين بالضمف والانحلال الذي أصاب أوروبا في زعمه إبان القرن التاسع عشر ، كل أولئك حمل دعاة النازية على أن يعملوا كي تقفر جوانب نفوس الألمان من تلك العقيدة التي تدعو للسلام والرحمة وبذلك تجر للضعف والاستسلام وهم شعب الله المختار الذي خلق لسيادة الدنيا في غير ضعف أو تحاذل !

صرر كتاب :

وعلى الرسل

فصول في الأدب والفكر والسياسة والجمعيات

بسم

أحمد حسن الزيات

وهو يقع في زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط

وتمه ٢٥ قرشا

ويطلب من مجلة الرسالة ومن جميع المكاتب المميرة